الفصل السادس

إسقاط الكسروية الفارسية

معركة القادسية (١٥هـ /٦٣٦م)

قبل ظهور الإسلام كان الخطر والتحدي يحيط بالعرب من كل الجهات، ويتقدم شيئًا فشيئًا ليهدد حريتهم واستقلالهم، بل ووجودهم بالزوال!.

ففي الشرق: كانت الإمبراطورية الفارسية تسيطر على العراق والخليج، وفي بعض الفترات امتدت سيطرتها إلى اليمن في الجنوب.

وفي الغرب والشمال: كان الروم البيزنطيون يفرضون سيطرتهم على عرب الشام.

وفي الجنوب: احتلت الحبشة ـ لفترات طويلة ـ جنوب شبه الجزيرة العربية: (اليمن).

ولم يبق حرًّا ومستقلًّا من بلاد العرب سوى وسط شبه الجزيرة، الذي كان وعرًا وفقيرًا وصحراويًّا، تسكنه قبائل شديدة المراس في الحرب، عاشقة للحرية، رافضة لأية قيود تفرضها أي حكومة من الحكومات، خصوصًا إذا كانت هذه الحكومة غير غربية، ومع ذلك؛ فلقد حاولت الحبشة في ٥٧١ م ـ عام الفيل ـ أن تغزو وسط شبه الجزيرة، وتحتل مكة، ولولا هزيمتها يومئذ لسيطر الأعداء على بلاد العرب كلها.

لكن هذا الخطر وذلك التحدي قد نبه في الأمة العربية عوامل اليقظة وروح المقاومة ونمَّى بين أبنائها صلات التضامن وروابط الاتحاد، وفي فترة وجيزة شهدت بلاد العرب هذه الأحداث:

ـ هزيمة جيش أبرهة الحبشي وغزوة الفيل ٥٧١ م وهو نفس العام الذي ولد فيه الرسول محمد ﷺ.

ـ وتحرير اليمن من الاحتلال الحبشي بقيادة البطل العربي سيف بن ذي يزن (٥١٦ ـ ٥٧٤ م).

ـ وقيام روابط التضامن بين حكومة مكة، بزعامة عبد المطلب بن هاشم (٥٠٠ ـ ٥٧٩ م) وبين حكومة اليمن.

ـ ونمو الروابط والعلاقات السلمية بين قبائل العرب في وسط شبه الجزيرة، وخاصة بعد الاتفاق على وقف الحروب والمنازعات

obeikandi.com

والغارات أربعة أشهر من كل عام، هي الأشهر الحرم: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم. وفي هذه الأشهر كانت تقام المعارض والأسواق، ويتم الحج إلى الكعبة، وتعقد المسابقات بين الشعراء والحكماء في الأسواق الشهيرة: عكاظ، ومجنة، وذي المجاز. الأمر الذي ساعد على تبلور الشخصية العربية الموحدة، وزاد من روابط التضامن والتقارب والاتحاد.

ـ وكان أول انتصار للعرب على الفرس في يوم ذي قار ٦١٠ م وهو نفس العام الذي ظهر فيه الإسلام!! ويومها استبشر الرسول خيرًا وتنبأ بأن هذا النصر سيكون فاتحة انتصارات أكبر، تحرر العرب من الفرس، وتنتقم لتاريخ طويل سيطر فيه الفرس على عرب الشرق والجنوب.

ـ ثم كانت الدولة العربية الإسلامية التي أقامها المسلمون بالمدينة ـ بعد الهجرة ـ هي سلاح العرب الأول الذي استطاعوا به مواجهة الخطر والتحدي، بل ومطاردة مصادر هذا الخطر وذلك التحدي، ومن ثم: فتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق، أصبحت القيادة فيها للعرب، وليس للفرس أو الروم!.

فلقد توحدت القبائل العربية خلف قيادة هذه الدولة، وبعد أن تأكدت هذه الوحدة على عهد أبي بكر الصديق (١١ـ ١٣هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٣٤ م) أصبح في استطاعة الدولة العربية الإسلامية أن تتطلع إلى تحرير الأرض العربية الواقعة تحت سيطرة كل من الفرس والروم منذ قرون: العراق العربي في المشرق، والشام العربي في الغرب والشمال. ولقد نهضت الدولة بهذه المهمة التحريرية على عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (١٣ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م).

ـ فمنذ أواخر عهد أبي بكر كانت المناوشات والمعارك قائمة بين العرب وبين الفرس والروم، ولقد استطاع الجيش العربي أن يحرز عددًا من الانتصارات في عدد من المواقع بجنوبي العراق ـ في الحيرة، والبويب ـ بقيادة البطل العربي المسلم المثنى بن حارثة الشيباني (١٤هـ/ ٦٣٥م) وأن يحرز كذلك عددًا من الانتصارات في فلسطين، أهمها الانتصار في أجنادين.

ـ لكن عهد عمر بن الخطاب هو الذي شهد الانتصارات الحاسمة، التي حررت العرب من الفرس والروم، وثأرت لتاريخ طويل أذلوا فيه العرب قبل ظهور الإسلام. وجددت شباب المنطقة،

obeikandl.com

سياسيًّا وحضاريًّا، بفكر الإسلام ففي الوقت الذي فتح فيه انتصار العرب على الروم في موقعة اليرموك (١٥ ـ ٦٣٦م) الباب لزحف عربي شامل حرر كل الشام، كان العراق ينتظر هو الآخر معركته الحاسمة التي تقرر: لمن الغلبة؟ للفرس؟ أم للعرب المسلمين؟!.

فعرش فارس كان قد تولاه ملك جديد، هو يزدجرد بن شهريار (٦٣٢ ـ ٦٤٢م) وكان يدرك خطر اليقظة العربية القادمة لانتزاع العراق من الفارسيين، فجمع كلمة الفرس على الاستعداد لإخماد هذه اليقظة قبل أن تحقق انتصارها الحاسم، ومن ثم بدأت حشود الفرس العسكرية تضغط على الجيش العربي الذي يقوده المثنى بن حارثة الشيباني؛ فأرسل المثنى إلى عمر بن الخطاب يخبره أن كفة الفرس قد رجحت، ويطلب الإمـدادات. وأضيف إلى الموقف عامل جديد، وهو مرض المثنى بن حارثة، مرضًا بدا أنه مرض الموت! وأدرك عمر بن الخطاب خطر المواجهة المنتظرة، والوشيكة، وأيقن أنها حاسمة في تاريخ طويل لصراع طويل! فعزم على أن يخرج بنفسه لقيادة المعركة التي وضح أن مكانها سيكون (القادسية) ـ (غربي النجف، وعلى بعد ثمانية عشر ميلًا ونصف ميل من مكان الكوفة) ـ فهي معركة حاسمة، يزيد من أهميتها أنها ستدور في مكان حاسم، فإما أن يفتح نصر العرب فيها الباب لتحرير العراق، ومطاردة أركان النظام الفارسي الإقطاعي، وإما أن تفتح هزيمتهم فيها الباب لاسترداد الفرس السيطرة على جنوبي العراق ومنطقة الخليج. **فالقادسية ـ كما قال الخليفة عمر: «باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب، وهي منزل رغيب خصيب حصين، دونه قناطر وأنهار ممتنعة»!.**

ـ وبالفعل خرج الخليفة إلى موضع يسمى «صرار»، على بعد أميال من المدينة، في الطريق إلى العراق، فأقام معسكرًا، وشرع يجري الاستعداد لتأليف جيش القادسية، ولكن الصحابة أشاروا عليه بمخاطر قيادته المباشرة للجيش في ميدان القتال، وطلبوا إليه البقاء في العاصمة، وأن يقود المعركة أحد الصحابة من أبطال الغزوات والفتوحات المشهورين، ورشحوا سعد بن أبي وقاص (٢٣ ق.هـ ـ ٥٥ هـ / ٦٠٣ ـ ٦٧٥م) فهو أسد من أسود الحرب وعلم من أعلام الفتوحات.

***

obeikandl.com

ولقد نهض عمر ـ ومعه ولاة الأقاليم، وقادة الحاميات، ورؤساء القبائل ـ بتوجيه كل الطاقات لتجهيز الجيش. فالفرس قد جمعوا جموعهم، حتى بلغ تعداد جيشهم هناك مائة وعشرين ألف مقاتل، إذا أضيف إليهم أتباعهم وخدمهم ومعاونوهم بلغوا مائتي ألف! وهم قد حشدوا في هذا الجيش ملوكهم وحكام أقاليمهم وأبرز الأساورة وأمهر المقاتلين، واستعانوا في هذا الجيش بثلاثة وثلاثين فيلًا؛ كي تفسد على الخيول العربية يقظتها وصمودها عندما يشتد القتال! وجعلوا قيادة هذا الجيش الجرار لأبرز قوادهم: رستم بن الفرخزاذ، قائد الجيش الإمبراطوري، ورفعوا رايتهم الشهيرة (درفش كابيان)، وكانت من جلد النمر، مرصعة بالجواهر، يستبشر بها الفرس ولا يرفعونها إلا في الأمر الشديد، ومن خلف هذا الجيش قامت المدن تقيم الحصون، وتؤلف الجيوش، وتجمع الإمدادات.

وأمام هذا التحدي اتخذ عمر بن الخطاب قراره، فقال: «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب»! فهي إذن مواجهة بين أمتين وحضارتين! وكلٌّ يستجمع لها أقصى ما لديه من إمكانيات. وبعث عمر إلى مختلف أقاليم الدولة وولاتها أن «ينتخبوا ويختاروا جيش القادسية من خيار العرب». فكل قبيلة تقدم أبرز رؤسائها وأمهر مقاتليها وفرسانها وخير خيولها وأمضى سيوفها، وكذلك تصنع القرى والمدن في مختلف الأنحاء، بل لقد احتشد في هذا الجيش ـ أيضًا ـ أصحاب الرأي، والشرف، والسلطة، والخطباء، والشعراء، والحكماء!.

وضم عمر إليه أكثر من سبعين مقاتلًا من الذين شهدوا غزوة بدر! وأكثر من ثلاثمائة من صحابة الرسول! وسبعمائة من أبنائهم، وثلاثمائة من الأبطال الذين شهدوا مع الرسول فتح مكة! حتى لقد أصبح هذا الجيش خلاصة الأمة العربية المسلمة، وكتب الذين شهدوا جنوده عن المزايا التي تحلوا بها، فقالوا إنهم لم يروا فيه من يتصف بصفة من ثلاث: الجبن، أو الغدر، أو الغلول ـ (اختلاس الغنائم والأموال)!.

ولقد استغرقت عملية الحشد والانتخاب والاستعداد هذه ثلاثة أشهر، عسكر أثناءها سعد بن أبي وقاص في (الثعلبية) على طريق مكة، وعندما اكتمل له الاستعداد أوصاه الخليفة **بأن يتبع**

obeikandl.com

سنة الرسول في المساواة بين الناس، والوفاء بالأمان لمن طلبه من العجم، وحذرهم من الغدر وعدم الوفاء بعهود الأمان.

وزحف الجيش بقيادة سعد بن أبي وقاص إلى العراق.

***

وعندما اقترب الجيش العربي من مواقع الفرس كان المرض قد اشتد على المثنى بن حارثة الشيباني، وقبل أن ينقلوه إلى منازل أهله حرص على أن يكتب إلى سعد بن أبي وقاص بخبرته في قتال الفرس، ويقدم له مشورته حول المعركة المنتظرة، ورشح له المكان الواقع بين القادسية ونهر العذيب معسكرًا لجند المسلمين، وانضم جيش المثنى إلى جيش سعد، وأصبح في هذا الجيش كثيرون من الأبطال الذين شهدوا أيام العرب ومواقعهم ضد الفرس، حتى قبل ظهور الإسلام! وانضم إليه ـ كذلك ـ عديد من فقراء الفرس، دون أن يدخلوا في الإسلام، وقبائل عربية كثيرة كانت ديانتها المسيحية، فأصبح الجيش المسلم جيشًا للعرب بأديانهم المتعددة، بل وجيشًا لكل الثائرين على ظلم الفرس واستبدادهم وإقطاعهم ونظامهم الطبقي القاسي والرهيب.!

وفي مواجهة المائتي ألف فارس؛ عسكر عند القادسية أكثر قليلًا من ثلاثين ألفًا، تمثلت فيهم خلاصة العرب يومئذ، يقودهم سعد بن أبي وقاص!.

***

لكن الخليفة الذي كان يود أن يقود المعركة بنفسه لم يكتف بما بذل في الإعداد لها من جهود، فلقد خطط أن يشارك في القيادة يومًا بيوم، وعلى نحو يكاد أن يكون مباشرًا، رغم وجوده في المدينة! فكان يخصص وقته في الصباح حتى منتصف النهار لجمع الأخبار عن جيش القادسية، وتحليلها ودراستها مع الصحابة والمشيرين، وكان يتوق إلى الإسهام بالرأي في تفاصيل الإعداد للقاء الفرس وقتالهم مع قائد الجيش سعد بن أبي وقاص، لكن طبيعة ميدان المعركة وتضاريس أرض القتال ومواقع العدو وأنواع الأسلحة لم تكن معلوماتها متوفرة لديه، فكتب إلى سعد بن أبي وقاص يطلب منه أن يكتب له بكل ما لديه من التفاصيل، حتى يضع أمامه صورة خريطة للميدان ومن فيه وما فيه، كي يتيسر له الإسهام بالرأي والتوجيه! وجاء في رسالة عمر إلى سعد: «.. **إنه قد منعني**

obeikandl.com

من بعض ما أردت الكتابة به إليك: قلة علمي بما هجمتهم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم. فاكتب إليّ: أين بلغك جمعهم؟ ومن رأسهم ـ (قائدهم) ـ الذي يلي مصادمتكم؟ وصف لنا منازل (مواقع) المسلمين والبلد الذي بينكم وبين (المدائن) صفه كأني أنظر إليها! واجعلني من أمرك على جلية (بينة)!..».. فكتب سعد إلى الخليفة بكل التفاصيل، وصف له المدن، والخنادق، والطرق، والجبال، والأنهار، والقادة، والناس والسلاح... الخ. الخ وكانت المراسلات تتم يوميًّا بين الخليفة وسعد حتى لنستطيع أن نقول: إن عمر بن الخطاب قد أقام بالمدينة «غرفة عمليات»، ووضع أمامه فيها خريطة لأرض معركة القادسية، وجعل يضيف إلى هذه الخريطة يومًا بيوم كل ما يحدث على مواقعها من تغيرات، وبذلك استطاع أن يسهم إسهامًا حقيقيًّا في قيادة القتال وهو على مسافة شاسعة من ميدان هذا القتال!.

فهو يكتب إلى سعد لينظم المقاتلين: عشرة، عشرة. ولكل عشرة قائد وأن يعين الأمراء على: المقدمات، والميامن، والمياسر، والمجنبات، والساقات ـ (المؤخرة) ـ والطلائع، والمشاة، والفرسان.. الخ الخ. ويحدد له ترتيب المقاتلين: فالأمير، يليه أمراء الجماعات (المقدمات، والميامن، والمياسر.. الخ) يليهم أمراء العشرة، يليهم أصحاب الرايات، يليهم رؤساء القبائل.. الخ الخ.

وعندما تأتيه أنباء القتال بأسماء الذين أبلوا فيه بلاءً حسنًا، يرسل الجوائز: خيلًا وسيوفًا إلى الفرسان المبرزين! فيشعر المقاتلون أن أمير المؤمنين معهم في الميدان!.

ولم يكن الخليفة وحده هو الذي يعيش بكيانه وطاقاته تلك المواجهة الحاسمة بين العرب والفرس في القادسية، بل كانت معه في ذلك الأمة كلها، حتى ليحكى المؤرخون أن الناس قد علقوا ثبات الدولة وزوالها على نتائج تلك المعركة، وأصبحت في كل بلد جماعة تخصصت في جمع أخبار القادسية وإبلاغها إلى عامة الناس!. بل لقد علق الناس الكثير من أمور حياتهم عليها «حتى إن الرجل يريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أعرف ما يكون من أمر القادسية»! كما يقول المؤرخون.

كانت معركة مصيرية، حشدت لها الأمة خير ما عندها وتعلقت بنتائجها الآمال والأفكار والمصائر والمشاعر والقلوب!.

obeikandl.com

وقبل أن يبدأ الصراع بأدوات القتال بدأ بأدوات الفكر، فلقد كانت للإسلام تقاليد مرعية: أن يبدأ المسلمون بدعوة عدوهم إلى الإسلام أو المسالمة.. أولًا: فإن أبى فالقتال، وطلب الخليفة من سعد بن أبي وقاص رعاية هذه السنة، فبعث وفدًا إلى ملك الفرس يزدجرد، فلما دعوه إلى الإسلام غضب، وأمرهم بالانصراف؛ قائلًا: لولا أنكم رسل لقتلتكم! لكن رستم ـ قائد جيش الفرس ـ أرسل إلى سعد يطلب منه أن يبعث إليه من يحاوره، فذهب المغيرة بن شعبة إلى حيث يجلس رستم في خيمته على سريره الذهبي، وتقدم ليجلس إلى جواره على السرير، فاستنكر الفرس ذلك؛ لمنافاته لنظامهم الطبقي الذي يجعل لكل طبقة مكانًا محددًا لا تتعداه! ومنعوا المغيرة من الجلوس على السرير، فحدثهم حديثًا جذب إلى العرب قلوب الطبقات الفارسية الفقيرة، وأغضب الأثرياء والإقطاعيين والمستغلين.

قال لهم: «**إنا ـ معشر العرب ـ سواء (متساوون) لا يستعبد بعضنا بعضًا، ولقد ظننت أنكم تتساوون مع قومكم، كما نتساوى. ولقد كان الأحسن ـ بدلًا من أن تمنعوني الجلوس على سرير قائدكم؛ أن تخبروني أن بعضكم أرباب لبعض؟!. إن هذا الأمر لا يستقيم، ونحن لا نصنعه، ولقد تيقنت الآن أن أمركم مضمحل، فليس يقوم ملك على هذه السيرة، ولا على هذه العقول...**»؟! ولما سمع الفرس قول المغيرة قال فقراؤهم: «صدق هذ العربي»! أما الأغنياء فتوجسوا خيفة من هذه البذرة الثورية التي بذرها في أرضهم، وقالوا: «والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه! قاتل الله أسلافنا، ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون من أمر هذه الأمة العربية»!.

ثم تحدث رستم إلى المغيرة بمنطق ملوك الفرس مع عرب العراق قديمًا قبل ظهور الإسلام، فحدثه عن أن الفقر والحاجة هي سبب خروج العرب للقتال، وأن باستطاعتهم أن يأخذوا لأنفسهم ولدوابهم أعلافًا ويعودوا إلى وسط شبه الجزيرة تاركين العراق في أيدي الفارسيين، لكن المغيرة حدثه عن الإسلام، وما أحدثه في العرب من انقلاب، وأسمعه كلمات القائد سعد بن أبي وقاص: «**إن الله تعالى أحيانا بالإسلام، وأحيى به قلوبًا كانت ميتة، وأمات به قلوبًا كانت حية**»! ودعاه إلى أن يكون مع الأحياء فأبى، وتوعد المغيرة والعرب بالإبادة عندما يرتفع ضحى الغد، وأقسم

obeikandl.com

على ذلك بالشمس والقمر، فانصرف المغيرة وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله!.

ولقد تكرر الحوار بين الأمتين والحضارتين مرة أخرى، عندما خرج رستم يتفقد جنوده، وأرسل إلى واحد من سادات العرب وأشرافهم في الجاهلية، هو زهرة بن عبد الله بن الجوية التميمي ـ وكان قد لقي الرسول وأسلم وجاء اليوم ليقاتل الفرس تحت قيادة سعد بن أبي وقاص ـ أرسل إليه رستم ليحاوره، فلقيه ودار بينهما حوار تأكد للفرس من خلاله أن أخطر ما يهدد نظامهم ليس التوحيد الديني الذي جاء به الإسلام، ولكن: المساواة بين الناس! بدأ رستم الحوار:

ـ أنتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا وكان لهم في ذلك معاش!.

ـ صدقت، لكن أمرنا اليوم ليس كأمر أسلافنا، لقد بعث الله إلينا رسولًا فدعانا فأجبناه. وقال لنبيه: إني قد سلطت هذه الأمة على من لم يؤمن بديني.

ـ وما هو هذا الدين؟

ـ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله.

ـ حسن!. وأي شيء أيضًا؟

ـ والناس بنو آدم وحواء سواء إخوة لأب وأم!

ـ أما هذه فإن أهل فارس منذ أن تولى عليهم الملك أردشير وحتى اليوم لا يتركون أحدًا من طبقة السفلة يخرج من نطاق طبقته، وذلك حتى لا يعادوا الأشراف!.

ـ لكننا لا نستطيع أن نكون كما تقولون!.

وهنا دعا رستم رجالات فارس، فعرض عليهم الفكر الاجتماعي الذي يبشر به الإسلام في المساواة بين الناس، فهاجوا وماجوا وصمموا على القتال!.

وكما عبأ رستم أشراف الفرس وأغنياءهم عندما خوفهم من فكر الإسلام الاجتماعي. أخذ سعد بن أبي وقاص في تعبئة جنده، بتذكيرهم بتاريخ قومهم مع الفرس فيما قبل الإسلام، وبما لهم من ثأر وبما للعرب من تقاليد في الشجاعة والفداء لا يرقى عليها

obeikandl.com

الفرس مهما حشدوا وأوعدوا، ولقد ألف للتعبئة فريقًا ضم أهل الرأي والنجدة والشعراء والخطباء فحدثوا الناس عن الإسلام الذي وحد العرب بعد التمزق والعداوات، وعن المهمة التي تنتظرهم بفتح فارس كما فتح إخوانهم الشام. وعن أن التنافس الحق والمشروع إنما يكون في الجهاد، وتحدث المؤرخون عن أن فريق التعبئة هذا كان يقرأ على الجند أفكارًا صاغوها وسموها «سورة الجهاد»! ففعلت فعلها في قلوب المقاتلين حتى زاد شوقهم للقاء الأعداء!.

***

واشتعل القتال بين الفريقين في معركة ندر أن سجل مثيلًا لها تاريخ العرب في الحروب والفتوحات ودام اشتعال القتل والقتال عدة أيام:

ففي اليوم الأول ـ ويسميه المؤرخون «يوم أرماث» ـ هيأ سعد بن أبي وقاص جنده للقتال، بعد صلاة الظهر بنداء (الله أكبر) كبّر أربع مرات، وهم يرددون بعده التكبير وفي كل مرة يرفعون من درجة استعدادهم للقتال لقد قال لهم: «إذا كبرت الرابعة شدوا النواجذ على الأضراس، واحملوا وازحفوا جميعًا حتى تخالطوا الأعداء» ففعلوا، وبدأت المبارزة بين أبطال الفرسان.

وفي هذا اليوم لقي المسلمون من الفرس مكائد لم يتعودوها في القتال، وواجهتهم أسلحة لم تواجههم من قبل؛ فالفرس قد زرعوا تحت أقدام خيل المسلمين المسامير! وربطوا خيلهم هم بعضها إلى بعض كي يمنعوها من الفرار! ثم دخلت الفيلة المعركة على كل فيل تابوت به عشرون رجلًا، والخيل إذا رأت الفيلة ـ وقد توحشت من منظر الميدان وجو الحرب ـ أحجمت ونفرت؛ مما أدى إلى تفرق كتائب العرب الفرسان، حتى كادت بعض القبائل العربية ـ مثل بجيلة ـ أن تفنى، لكن سعد بن أبي وقاص أسرع فأرسل من يتعلق بأذناب الفيلة، ويقطع أحزمة توابيتها، فسقطت التوابيت بمن فيها من الرجال، الأمر الذي أربك حركتها، وجعل يوم القتال الأول يمضي بخسارة في الصف العربي من الممكن تعويضها باستخلاص العبر والدروس!.

وحل الظلام، فتوقف القتال وكانت الليلة الأولى التي سماها المؤرخون (ليلة الهدأة) لهدوئها وخلوها من القتال!.

obeikandl.com

وفي اليوم الثاني ـ ويسميه المؤرخون (يوم أغواث) ـ بدأ القتال منذ الصباح وكانت معركة للفرسان دامت حتى منتصف الليل! وفي هذا اليوم دارت الدائرة على الفرس، فالفيلة لم تشارك في القتال؛ لأنهم كانوا لا يزالون يصلحون لها التوابيت التي حطمها العرب بالأمس، وأكثر من هذا فلقد ابتكر العرب سلاحًا يشبه الفيلة! وذلك عندما صنعوا «هوادج» حملوها على ظهور الإبل، وألبسوها كسوة مجللة مبرقعة، وحملوا على كل واحد منها عشرة رجال، وانطلقت هذه الإبل بين صفوف الخيل الفارسية، فكانت تنفر، وتحاول الهرب من السلاح، فتحدث في صفوف فرسان الفرس من الارتباك أعظم ما أحدثته بالأمس الفيلة في صفوف الفرسان المسلمين!.

ولم تكن ليلة ذلك اليوم هادئة كيوم أرماث، بل كانت حافلة بالقتال؛ ولذلك سماها المؤرخون «ليلة السواد»!. وكانت حصيلة (يوم أغواث): قتل جمهور كبير من أعلام المقاتلين والفرسان في الجيش الفارسي حتى لقد بلغ قتلاهم وجرحاهم فيه عشرة آلاف!.

وفي اليوم الثالث ـ ويسميه المؤرخون (يوم عماس) ـ استعد الفريقان للقتال، وكانت الأرض بين الصفين المتحفزين قد اصطبغت بالدم في مسافة بلغت الميل في الطول! وقال المؤرخون عن لونه إنه «كالرجلة الحمراء».

بدأ القتال وأبصر المسلمون مددًا يأتيهم من إخوانهم الذين انتصروا على الروم في الشام، وكان المدد يصل إلى أرض المعركة على دفعات مائة بعد مائة، فيشتد أزرهم، وتقوى عزيمتهم، وتزيد في النصر الآمال.

وكان الفرس قد أصلحوا توابيت الفيلة، وجاءوا بها إلى ساحة القتال، لكنهم أحاطوها بالحراس الذين يحرسون أحزمة توابيتها، ولقد أدى وجود هؤلاء الحراس حول الفيلة إلى شل غرائزها المتوحشة لحرمانها من الانفراد والانطلاق، فضعفت فاعليتها في إرباك فرسان المسلمين. وكان سعد بن أبي وقاص قد استعلم من الفرس الذي أسلموا وانضموا إلى الجيش العربي عن أنجح السبل في كسر شوكة الفيلة في القتال، فأخبروه أن مقاتل الفيلة في العيون والأشفار، فاختار من المقاتلين المهرة من اقتحم الميدان فطعن

obeikandl.com

الفيلين اللذين كانا يقودان باقي الفيلة في عيونهما وقطع مشافرهما، ففرّا مسرعين، واخترقا صفوف الفرس، ومن خلفهما كل الفيلة، فأحدثوا ارتباكًا شديدًا في صفوف الأعداء! ولم تتوقف هذه الفيلة الهاربة إلا في عاصمة الفرس: (المدائن)!.

وانتهى (يوم عماس) بتكافؤ الفريقين في نتائج القتال.

ثم كانت (ليلة الهرير) ـ وهي التي أعقبت (يوم عماس) ـ وفيها تصاعد القتال إلى ذروة لم يصل إليها من قبل حتى ليحكى المؤرخون أن صليل حديد آلات القتال وسيوفه قد حاكى صوت صناع الأدوات الحديدية (القيون ـ الحدادين) وقاتل الجيشان حتى الصباح واستغرق الجنود في القتال حتى لقد منعهم عن الكلام، وحل محل الكلام عندهم: الصوت الزاجر الذي يحاكي زئير الأسود والعرب تسميه (الهرير) ولذلك سموها (ليلة الهرير)!. ولقد بلغ تلاحم الجيشين في القتال إلى الحد الذي خفيت فيه معالم سير المعركة عن كل من رستم وسعد بن أبي وقاص حتى كان الصباح فعلم سعد أن كفة المسلمين كانت الأرجح على كفة الأعداء!.

وأخيرًا كان (يوم القادسية) ولم يفصل بين بدء القتال فيه وانتهائه في (ليلة الهرير) سوى ساعة، استراح فيها المقاتلون، وتهيئوا لاستئناف القتال! فلما كانت ساعة الظهر من هذا اليوم أصبح النصر في متناول العرب، فشقوا قلب الجيش الفارسي، ووصل فرسانهم إلى حيث خيمة القائد رستم، وكانت الريح العاصفة قد دخلت الحرب هي الأخرى، فهبت واقتلعت الخيمة!. وحاول رستم الفرار فألقى بنفسه في نهر العتيق، فطارده الفارس العربي هلال بن علفة، فأمسك به، وقتله ثم صعد على سريره الذهبي وصاح: قتلت رستم ورب الكعبة! فكبر المسلمون شكرًا لله وفرحًا بالنصر، وحملوا السرير وطافوا بفارسهم الذي قتل قائد الجيش الإمبراطوري، بينما كانت فلول الجيش الفارسي تعبر النهر هربًا، يقودها ملك من ملوكهم اسمه «الجالينوس» مخلفة وراءها عشرة آلاف قتيل جديد!.

وكان يوم القادسية هذا يوم الحسم في المواجهة التي دارت على تلك الأرض بين دولة إقطاعية ذات نظام طبقي ظالم وفكر مثقل بالكهنوت والاستغلال، وبين أمة شابة، خرجت جيوشها لتحرر

obeikandl.com

الأرض والإنسان، ولتجدد شباب الدنيا بعدالة الإسلام ومساواته وفكره الديني المتسامح والبسيط.

وبعد نصر القادسية هذا انفتحت أبـواب فـارس، مدينة بعد مدينة وحصنًا وراء حصن، أمام العرب: فتحوا (حلوان) و(المدائن) ـ عاصمة الفرس ـ ثم (جلولاء). وكلها مدن عربية، في العراق العربي. حرروها بعد أن ظلت في الأسر الفارسي عدة قرون!.

ولقد تغيرت بهذا النصر في القادسية ـ ومن قبله بنصر «اليرموك» في الشام ـ صورة الأمم ومراكز الشعوب في الشرق، فمن قبلهما كان العرب مستضعفين تفترسهم المخاطر والتحديات، وكانوا يقولون ـ كما يحكي المؤرخون ـ عن فارس: «فارس الأسد» وعن الروم: «الروم الأسد» أما بعد هذا النصر فلقد قالوا عن عرب ربيعة ـ الذين أبلوا في القادسية أحسن بلاء ـ: «ربيعة الأسد»؟! فحدث التحول في مكانة العرب في التاريخ، وأصبحت لهم القيادة في الشرق بدلًا من الفرس والروم!.

***

ولقد كانت ليوم القادسية صوره التي ذهبت نماذج في البطولة والفداء.

فالفارس العربي «أبو محجن الثقفي» كان مـعدودًا ومبرزًا بين الفـرسان، ولكنـه كان عاشقًا للخمر يشربها رغـم تحريمها في الإسلام! ولقد نفاه عمر بن الخطاب من المدينة لشربه الخمر، ثم التحق بجيش القادسية كي يشارك في القتال، ولكنه عاد فشرب الخمر. هنا؛ غضب منه سعد بن أبي وقاص، وضربه، وحبسه في قصره ـ «قصر العذيب»، فلما اشتعل القتال وحميت المعركة أبصر أبو محجن ـ من محبسه ـ ما يلاقي المسلمون من تفوق الفرس في العدة والعتاد، فتاقت نفسه للجهاد، فتوسل إلى «زبراء» زوجة سعد بن أبي وقاص أن تطلق سراحه، وتعطيه فرس سعد كي يشارك في القتال، وأقسم لها أنه سيعود بعد أداء دوره كي يضع قدميه في الحديد من جديد!. واستجابت «زبراء» لطلبه، فاخترق أبو محجن صفوف الفرس، وقاتل قتال الأبطال، وحطم الفيل الأبيض الذي كان يقود الفيلة التي تحدث الارتباك في صفوف الفرسان المسلمين. ورآه سعد بن أبي وقاص من موقع قيادته، فتساءل حائرًا: من هذا الفارس؟ ثم قال: أما الفرس ففرسي، وأما الحملة فحملة أبي محجن؟!. وبعد المعركة وجد سعدًا

أبا محجن في محبسه وقيده، لكن زوجته قصت عليه القصة، فقال لأبي محجن: والله لا أضربنك في الخمر، بعد ما رأيت منك، أبدًا! فأجابه أبو محجن: وأنا ـ والله ـ لن أشربها أبدًا!.

وشهدت ساحة القتال كثيرًا من المقاتلين والفرسان يعرضون أنفسهم على الموت، ويلحون إلحاحًا شديدًا في طلب الشهادة، وهم في خلال ذلك ينجزون أخطر المهام ويصنعون في الحرب المعجزات! فأكثر من فارس قد اخترق صفوف الفرس وحواجزهم طالبًا خيمة القائد رستم كي يجهز عليه، و«علباء بن جحش العجلي» يتقدم كي يبارز بطلًا من أبطال الفرس، فيصيب كل منهما الآخر ويموت الفارسي من فوره؛ لأن الطعنة قد أصابت رئته على حين يظل «علباء» حيًّا، بعد أن فتحت بطنه وبرزت منها الأمعاء! ويجاهد البطل ليدخل أمعاءه إلى بطنه فلا يستطيع، فيستعين على ذلك بأحد المسلمين، ثم يمسك جلد بطنه بإحدى يديه، وسيفه بالأخرى، وبدلًا من أن يرجع إلى صفوف المسلمين يتقدم كي يقاتل الأعداء! ثم يموت وهو ينشد متحدثًا عن الطعنة التي يعاني منها:

أرجـو بهـا مـن ربنا ثوابا قد كنت ممن أحسن الضِّرابا!.

والمؤذن.. يقف على مرتفع من الأرض ليؤذن لصلاة الظهر فتصيبه سهام الأعداء! لكن المسلمين بدلًا من أن يستخفوا بالآذان، يتسابق كل منهم يريد أن يصعد إلى المكان المرتفع كي يتحدى سهام الفرس ويؤذن للصلاة! حتى لقد أوشكوا ـ من التنافس على ذلك ـ أن يقتتلوا بالسيوف! ولم يجد سعد بن أبي وقاص غير «القرعة» سبيلًا يختار بها من بينهم من له شرف الأذان للصلاة تحت مرمى سهام الأعداء!.

والمرأة العربية: لقد كان لها في القادسية دور كبير؛ فسلمى بنت خصفة كانت زوجة للقائد المثنى بن حارثة الشيباني، فلما مات تزوجها سعد بن أبي وقاص فوقفت إلى جواره وهو يقود المعركة. وعندما رأت كفة الفرس قد رجحت ـ في بعض مراحل القتال ـ أخذت تستفز سعدًا، وتحرضه، بل وتتحدث عن شجاعة المثنى التي تفتقدها فيه!

وهذه المرأة العجوز من بني النخع، خرجت مع أبنائها الأربعة إلى ساحة القتال فحدثتهم عن إسلامهم الصادق، وهجرتهم المخلصة وقالت لهم: إنهم قد خرجوا للجهاد، ولم يخرجوا لجمع

obeikandl.com

المال كما يفعل الجياع، وإنهم بعد أن وضعوها ـ وهي العجوز ـ بين يدي أهل فارس، فلابد أن يقاتلوا قتال الأبطال الجديرين بأمومتها: «.. ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم! انطلقوا فاشهدوا القتال وشاركوا فيه من أوله حتى آخره..»!.. وعندما كان يغيب عنها أولادها لم تكن تجزع، وإنما كانت تتوجه إلى الله بالدعاء: «اللهم ادفع الخطر عن بني»! وكان الفرسان الأربعة يعودون إلى أمهم بنصيبهم من الغنائم فيلقونه في حجرها، فتقسمه بينهم على نحو يرضى عنه ويسعد به الجميع!.

وبين جولات القتال، وفي فترات الهدوء على ساحته كانت النساء العربيات ـ ومعهن الصبيان ـ يشدون الأحزمة على الثياب، وتحمل النساء الهراوات، ويحمل الصبيان أواني الجلد الصغيرة ـ (الأداوي) ـ المليئة بالمياه، ثم ينزلون جميعًا إلى ساحة المعركة. الصبية يسقون جرحى المسلمين، والنساء ينقلن هؤلاء الجرحى لتمريضهم ومداواة جراحهم ثم يجمعون جثث الشهداء ويحفرون لها القبور ويوارونها التراب.

وأخيرًا وصل البشير بأخبار نصر القادسية إلى عمر بن الخطاب فحمد الله على أن فتح العرب باب فارس المنيع الخصيب!.

ووصلت نفس الأخبار إلى يزدجرد بن شهريار، في «المدائن» فقرر الهرب، فدلوه من قصره سرًّا، في «زبيل» (قفة) حتى سماه الناس «برزبيلا»! فهرب ومعه أمواله وأهله وكبار رجالات دولته! ذلك أن فتح باب القادسية قد فتح أمام العرب كل الأبواب حتى لقد قال الفرس بعضهم لبعض عندما أبصروا خيل العرب تسبح الأنهار وتصعد الجبال: «والله ما تقاتلون إلا جنًا»! فانهزموا ـ بالرعب ـ بعد أن انهزموا بالقتال!.

وكان لابد أن ينهزموا بعد أن واجهوا في القادسية فرسانًا ومقاتلين أصبحت الشهادة عندهم أحب من الحياة، حتى لقد يلحون في السعي للاستشهاد، بل ويودون أن لو كانت لهم أجنحة الطيور لتسرع بهم إلى لقاء الأعداء:

تحن بباب القادسية ناقتي ... وسعد بن وقاص علَّ أمير
تذكر ـ هداك الله ـ وقع سيوفنا ... بباب قُديْس والمَكَرُّ عسير
عشية ود القوم لو أن بعضهم ... يعار جناحي طائر فيطير!!

***

obeikandl.com

هكذا مثل ظهور الإسلام انبثاق نور جديد لعالم جديد. وهكذا مثلت الفتوحات الإسلامية التحرير للضمائر والأوطان؛ فانتقلت قيادة الحضارة في العالم ـ مرة أخرى ـ إلى الشرق، وازدهرت ـ في هذه الحضارة الإسلامية ـ التعددية والتنوع لكل الديانات والفلسفات والمذاهب واللغات.

وبعد القهر والموات الحضاري، مثَّل الشرق الإسلامي العالم الأول على ظهر هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون.

وحتى يحمل الشرق أمانة هذه الرسالة الحضارية وليستعيد هذه القيادة من جديد؛ يصدر هذا الكتاب ـ الذي يوثق لفتوحات التحرير التي تمت تحت راية الإسلام.

obeikandl.com